الفصل الخامس

في مملكة جلالة الامبراطور البطريق!!

- طيور البطريق.. تحيِّينا بالنهيق!!
- كائنات عجيبة.. تتهادى كالنساء وتغوص كالأسماك!!
- البطريق ينتهك المسافة المقدسة بيننا وبينه.
- الأنثى تبيض.. والذكر يحتضن البيضة!!
- ملوك وأباطرة في بلاد البطريق!
- الإمبراطور ينشد أغان غزلية!!

obeikandl.com

obeikandl.com

الطريق إلى البطريق

تتهادى سفينتنا في إبحارها وهي في طريقها إلى قمة شبه جزيرة أنتاركتيكا حيث تقع جزيرة جونفيل شقيقة جزيرة دندي، وقد توخت الحذر كل الحذر من تلك الجبال العائمة.. المصورون المحترفون يتقافزون بمصوراتهم العجيبة فقد لمحوا الكثير من طيور البطريق وهي تمارس هواية التزحلق على جبل جليدي عائم قد مال سطحه العلوي نحو أحد جانبيه مشكِّلاً ساحة مثالية للتزحلق، وطيور البطريق ما أن تسقط إلى البحر، حتى تعود مرة أخرى لإجراء مسابقة جديدة في التزحلق في منظر يدعو للضحك ويبعث على البسمة، بل إنها كثيراً ما تتشاجر فيما بينها أو هكذا يبدو لنا من بعيد، فربما قام أحد المتسابقين بممارسة "الغش" في السباق! أو أنه دفع أحد منافسيه أو أنه تصرف بعيداً عن الروح الرياضية!! بل إن منظرها وهي في لهوها ذاك، كأنها أطفال لم تتعود على قواعد اللعب بعد!.. ويعلو صراخها وكأنه نهيق الحمير لا صياح الطيور.

المصورون المحترفون يتدافعون بالمناكب، وبعدسات مصوراتهم الطويلة لتسجيل المشهد.. من بينهم سيدة ضخمة الجثة كان لي معها موقف عند التحاقي بالسفينة قبل بداية الرحلة..

كنت أول راكب يصل السفينة في مدينة "أشوية" قبل الركاب جميعاً. طلب مني مسئول الركاب بالسفينة الإنتظار حتى يصل بقية الركاب ويتم توزيعهم على القمرات أو الغُرفَ بالمصطلح العام.. وصل جميع الركاب وتم توزيعهم على الكبائن قال لي المسئول سوف أحاول جهدي كي تكون بمفردك في كبينة واحدة أو على الأقل مع شخص آخر بدلاً من أربعة أشخاص هي الطاقة الإستيعابية الكاملة للقمرة أو الغرفة. وأيضاً سآخذ في الإعتبار ألا تكون مع سيدة في غرفة واحدة بناءً على رغبتك..

حدد لي المسئول رقم الغرفة المخصصة لي وكانت ضمن غرف الدرجة الثالثة والأخيرة في السفينة وهو مكاني المفضل طبقاً لإمكانياتي المادية المتواضعة.. حملت حقائبي الثقيلة وإتجهت إلى غرفتي.. وجدت فيها شخصا ضخم الجثة يرتدي ملابس ثقيلة نتيجة للبرودة الشديدة خارج السفينة ومعه العديد من أجهزة التصوير المعقدة.. ألقيت التحية، إلا أن الرد حمله صوت خفيض ناعم! تمعنت في الواقف أمامي فوجدت أن له شعراً طويلاً مسدلاً على كتفيه وملامح أنثوية!.. تأكد لي تماماً أن الشخص الواقف أمامي سيدة خاصة بعد أن قدمت لي نفسها وصافحتني مرحبة بي ومن ثم سألتني هل تقيم هنا في هذا الغرفة؟ فقلت نعم، قالت: أي السريرين تفُضل العلوي أم السفلي، ذلك أن الغرفة تحتوي على أربعة أسرة سريرين على كل جانب يعلوهما سريران آخران وهو أمر مألوف في السفن وذلك للاستفادة القصوى من الحجم والمساحة، والغرفة بالكاد تتسع لسريرين فكيف بأربعة! قلت لها: وما شأنك أنت إن كنت أفضل السرير العلوي أم السفلي؟ قالت لأنني سوف أشاركك الغرفة ومعي زميل آخر!!: أنت؟! ياللكارثة!.

كنت متأكداً تماماً من رقم الغرفة، وأنها هي التي تخصني، إلا أنني قلت لها: يبدوا أنني أخطأت المكان، ولا أظن أن هذه هي الغرفة التي خُصِصتَ لي، على كل حال سوف أتأكد.

غادرت مسرعاً إلى المسئول الإداري، وجدته يحمل بين يديه رزمة من الأوراق ويبحث عن بعض الركاب ليدلهم على غرفهم.. سحبته على جنب وقلت له: لقد قضيت اليوم بأسره وأنا أحدثك عن عاداتنا وتقاليدنا ووعدتني أنت بأن تتوصى بي خيراً. وأخيراً تبعث لي بسيدة مفتولة العضلات ضخمة الجم لتقيم معي في غرفة واحدة! قاتلك الله أو لم تجد غير هذه "المُصفَّحَةَ" لتقيمها عليَّ حارساً ورقيباً! (وكان حديثي معه يدور حول تدخل قوات

الأمـم المتحـدة والقـوات الأمريكيـة علـى وجـه الخصـوص في المنـاطق المضـطربة مـن العـالم وحماية الإمدادات الإنسانية وذلك قبل وصول الركاب).

فغر الرجـل فـاه دهشـة وقـال متعجبـاً: سـيدة؟! قبحهـا اللّه وقـد حسـبتها رجـلاً فـوراً سوف أنقلك إلى غرفة أخرى.

حمدت اللّه الذي أنقذني من ذلك الموقف المحرج.. فقد نقلني الرجل إلى غرفة أخرى كان يتقاسمها اثنان من كندا، زميلان يعملان في شركة واحدة ومن هواة الرحلات في المناطق الباردة وتسلق الجبال.. أحدهما تدل تقاطيع وجهه على أنه من شبه القارة الهندية، وعندما تحدث تأكدت من ذلك.. اللكنة مثل البصمة لا تزول أبداً.. يقول إنه هاجر من الهند إلى كندا مع والديه منذ كان صغيرا.. الشيء المميز فيه أنه لا يهز رأسه أبدا عند الحديث.. هذه بصمة أخرى خاصة بسكان الهند ولكنها تلاشت عنده ربما بفعل الزمن.. أو لأنه يعرف أنها تثير الإبتسام.. وربما شيء آخر أكثر من الإبتسام.. أذكر أنني استعملت طريقة هز الرأس مرة في إحدى الدول النائية مدعياً أنني من الهند حتى لا أكون موضع اهتمام أحد هناك ظناً منهم أنني ثري ويحصل ما لا يحمد عقباه، ذلك أن العربي عندهم "بنك" متحرك، أما الهندي فإنه يدعوا للشفقة! المهم أنني شاهدت القوم يسخرون من طريقتي في هز الرأس ويقلدونها خلسة بعيداً عن ناظريَّ مع أنني لاحظت ذلك دون علم منهم!

يعلـق زميلنـا الهنـدي الأصـل عـل ى مواعيـد الإسـتيقاظ المبكـر والـدروس والمحاضـرات بتعليقات طريفة يشاركه فيها صديقه الكندي.. يقول في إحداها: إن هذه ليست بإجازة يقضيها المرء للإستجمام والإسترخاء، بل إنها أشبه ما تكون بعقوبة نقضيها في معسكر عمل أو أنها فترة الخدمة العسكرية الالزامية!. وهو صادق فيما يقول.

لقد ذكرَّتني الحياة على السفينة الكندية، بفترة الدراسة والتدريب التي قضيتها في الأكاديمية العربية للنقل البحري بالاسكندرية من حيث الإنضباط والإستيقاظ المبكر والعمل المتواصل وتحمل المشاق.

طيور البطريق.. تحييننا بالنهيق!!

تقترب سفينتنا من جزيرة "جونفيل"، نشاهد عليها بقع سوداء كثيرة جداً.. إنها دائمة الحركة.. متنقلة من مكان إلى آخر! وكلما اقتربت السفينة من الجزيرة، وضحت معالم تلك البقع، إنها طيور البطريق تظهر واضحة جليّة، وهي من الكثرة بحيث تغطي الجزيرة كلها.. يعلو صراخها كلما اقتربت السفينة منها.. إنه أشبه بالنهيق! هل هو ترحيب أم تهديد؟ هل تعتبر البطاريق وصولنا هو زيارة أصدقاء أم غزو أعداء؟.. لم يتبين لنا بعد بوضوح كنه هذا الصراخ الذي يصم الآذان

أخيرا قرر الربان أن يتوقف بالقرب من الجزيرة.. ولكن من غير أن يُلقي المرساة.. لم أسأله لماذا ولكنني قدرّت أن الأمر يعود ربما لطبيعة القاع الصخرية والتي قد تحتجز المرساة وتسبب متاعباً لا داعي لها..

أنزل البحارة القوارب المطاطية، وأخذت المجموعات أماكنها.. كل مجموعة بميقات محدد.. ثم انطلقنا إلى الجزيرة. أصوات البطاريق تزداد صخباً وضجيجاً لقد تبينّ لي بوضوح بعد أن وطأت قدماي أرض الجزيرة الصخرية، أن تلك الأصوات التي كنت أسمعها هي خليط ما بين أصوات طيور البغبغاء ونهيق الحمير إنها أصوات مزعجة ومُنفّرة، بل إنها إحدى الأصوات المُنكّرة وإن لم تكن بنكرةٍ أصوات الحمير التي حازت على المرتبة الأولى منذ بدء حياة الحيوان على كوكب الأرض!

يُقدَّر عدد البطاريق في هذه الجزيرة بحوالي ٢٠٠ ألف بطريق! لا أعرف كيف حسبوها أو قدروّها لكن هذا ما سمعت.. ومعظم هذه البطاريق هنا من نوع أديلي *"Adelie"*، وعموماً فإن عدد أنواع البطاريق في العالم بأسره هو ١٨ نوع، منها سبعة أنواع تعيش في قارة أنتاركتيكا وسوف نأتي على ذكرها جميعاً في هذا الفصل

يُطلق على البطريق اسم "بنغو نيغو" وهي كلمة تحرفت فيما بعد إلى *"Penguin"* أو بنغوين كما يُعرف عالمياً، وأصل الكلمة يعني كثير الشحم أو السمين وهو اسم على مسمى فعلا، إذ تتميز طيور البطريق بكثرة الشحم الذي يقيها شدة البرد، كما أن الطائر منها عندما يمشي يبدو كالرجل السمين الذي يتمايل في مشيته ذات اليمين وذات الشمال!

طيور البطريق واحدة من أقدم الكائنات التي لازالت تعيش حتى اليوم، ويعود تاريخ وجودها إلى الحقب الثالث وهو الحقب الذي تكونت فيه سلاسل الجبال الكبرى على سطح الأرض، كالألب والهمالايا والأنديز وهو الحقب الذي يسبق عصرنا هذا الذي نعيش فيه. ويقدر العلماء وجود البطريق منذ ٦٠ مليون سنة، إذ كانت تعيش في القارة عندما كانت خضراء.. ثم مع مرور السنين تكيفت أجسامها لكي تعيش في هذه الأجواء القاسية وذلك أثناء رحلة أنتاركتيكا نحو الجنوب بعد انفصالها عن شقيقاتها السابقات!.

ولقد دلت الحفريات والدراسات التي أجريت في منطقة "بالمر" من شبه جزيرة أنتاركتيكا، أي التي نحن فيها الآن، على وجود خمسة أنواع من طيور البطريق كانت تعيش في فترة ما قبل التاريخ!

على كل حال قد لا يعنينا أن نتتبع أصولها العريقة، وإلى ماذا كانت تنتمي فيكفيها فخراً أنها أكثر عراقة من الإنسان الذي يسخر منها الآن!!، بل إنها ملكت الأرض قبله! إلا أن شكلها الغريب هذا وندرة وجودها في مناطق أخرى من العالم يدعونا إلى مثل ذلك التساؤل وهو: لماذا تعيش هذه الطيور بكثرة هنا في قاع العالم ولا تعيش في شماله مثلا؟ طالما أنها تأقلمت على شدة البرودة إلى درجة أنها قد هربت من جزيرة الخداع التي زرناها سابقًا عندما (ارتفعت) درجة الحرارة إلى (- ٥)، أو خمس درجات تحت الصفر؟

الجواب أن هذه الطيور وهي في طور تأقلمها على قسوة البرد وتكيفّ أجسامها عليه فقدت عنصراً هاماً من عناصر البقاء وهو قدرتها على الطيران، فهي من الطيور التي لا تطير، ولأن المنطقة القطبية الشمالية تسكنها الدببة والثعالب وغيرها من الوحوش البرية

وطيور البطريق على البر لا حول لها ولا قوة، إذا لو عاشت في الشمال فسيأتي عليها يوم تنقرض فيه. أما هنا في مملكتها الشاسعة المترامية الأطراف، لا يعيش حيوان بري واحد قط، بخلاف تلك الحشرات الحقيرة التي ذكرناها.

تفرق رفاق الرحلة في الجزيرة، وهي جزيرة بركانية يتكون شاطئها من عدد لا حصر له من الحصى البركاني الصلد مختلف ألوانه وأشكاله، وإن كان اللون الغالب هو الأسود والرمادي الذي تتخلله خيوط خضراء وبنية وصفراء.

أقبلت علينا البطاريق مرحبة بنهيق يصم الآذان، وأخذت تحيط بنا من كل جانب إن عددها مهول إلى درجة أننا لا نستطيع الحركة أو التنقل.. المشكلة الآن كيف نحفظ تلك المسافة (المقدسة) بيننا وبينها؟! لا مجال إطلاقاً للخمسة أمتار المسموحة لنا، بل إنها هي التي تنتهك تلك المسافة! كيف لا وقد ضاقت عليها مساحة الجزيرة حتى بدت متلاصقة في وقفتها تلك!

أخذت أمشي على حذر كي لا أطأ أعشاشها إلى أن وصلت إلى ربوة عالية نصبت عليها علم قطر الذي أصبح يحظى بشعبية الآن، بدليل رغبة الكثير من ركاب السفينة لالتقاط صور معه. ولعله الآن قصة تُروى في كتب وأبحاث العلماء الذين رافقتهم، أو صور تذكارية تباع في أمريكا وكندا. فقد نال إعجاب المصورين المحترفين فأخذوا يلتقطون له العديد من الصور!

هناك الكثير من الربُي الشامخات، ولكن كيف السبيل إلى قممها وقد إكتظت بالبطاريق وهي تنهق نهيق الحمير؟. كما أنه لا يحق لنا أن نقتحم عليها أعشاشها فإن تجولنا داخل الجزيرة كفيل بتحطيم بيضها وصغارها. إذن ليس لنا إلا الشاطئ.

البطريق كائن اجتماعي جدا!

وضَعتُ العلم ليس ببعيد عن الشاطئ، وتنحيت عنه أرقب فعل البطاريق حياله، دنت منه مجموعة منهم وأخذت تتأمله.. كان بقربي أحد الباحثين المتخصصين في حياة طيور البحر ومنها بالطبع البطريق.. حدثني قائلاً: (راقب جيداً ردة الفعل عند البطاريق، إنها ستدنوا من العلم وسوف تتأمله في محاولة منها لمعرفته عن كثب، ولديها حب استطلاع بشكل عجيب يصل إلى درجة الفضولية الشديدة. *"Very inquisitive"*.

حدث تماماً ما توقعه الرجل، أخذتَ "مجموعة مراقبة العلم!" تدور حوله وهي تنظر إليه من أعلى إلى أسفل، وكأنها تحادثهَ، وعندما لم تجد منه جواباً، غادرت إلى حال سبيلها، ثم أخذت تدنو منا نحن معشر البشر، ولو كنا نحمل معناً شيئاً من الطعام، لأصبح الصراع بينها شديداً للحصول عليه، ولكن هذا أيضاً من المحرمات لأن الهدف هو عدم تدخل الإنسان بتاتاً في تغيير أي شيء في تلك القارة سواء كان في طبيعتها، أو حتى في تغيير سلوك الحيوان فيها!.

ولأن طيور البطريق تختلف اختلافا كبيراً عن سائر الطيور في عاداتها وسلوكها فقد شك المكتشفون الأوائل عندما رأوها لأول مرة، بأنها طيور حقيقية!. ولقد وصف أولئك المكتشفون طيور البطريق – بعد عودتهم إلى ديارهم – بقولهم "لقد وجدنا هناك في نهاية العالم مخلوقات عجيبة، تتهادى في سيرها كالنساء وتغوص كالأسماك!" وبالطبع لم يصدقهم أحد.

لا تُعتبر طيور البطريق من الحيوانات الذكية، إلا أنها من السهل جداً استئناسها ولقد رأيت فيما بعد عند زيارتنا للقاعدة الأرجنتينية والقاعدة البولندية، العديد من طيور البطريق تتجول في القاعدة كأنها من المقيمين فيها ولأنها لا تخشى شيئاً بحكم وجودها في تلك المنطقة البعيدة عن الوحوش الضواري فإنها لا تخشى الإنسان، بل إنها تعتبره نوعاً

آخر من البطاريق العملاقة! وإن كان يختلف عنها بوجود الذراعين بدل الجناحين اللذين يستخدمهما البطريق في السباحة كمجاديف وفي العوم كزعانف.

ورغم أنها أليفة جداً، إلا أنها قد تصبح عدوانية إذا ما داهم الإنسان مناطق تكاثرها أو أعشاشها. وعلى ذكر أعشاشها، فإننا نستخدم هذه الكلمة مجازاً لأن عش البطريق عبارة عن حفر من الأرض تحيط بها مجموعة من الأحجار لحماية البيضة أو الصغير من العوامل الجوية والطيور الأخرى، كطائر الكركر المغرم بصغار البطريق عدوها اللدود.

هدأ الضجيج بعد وصولنا قليلاً. العلماء والمصورون وجدوا ضالتهم في العدد الهائل من هذه الطيور، تفرقوا هنا وهناك لدراسة سلوكها ومراقبتها وتصويرها أخذت أراقبها من باب الفضول ليس إلا. رأيت أحدها توجه ناحية البحر ثم تلفت يمنة ويسرة. ثم أخذ ينظر خلفه ويصيح بأعلى صوته.. تجمع خلفه طابور طويل بلغ عدد أفراده ٣٠ تقريباً !

لعله أحد زعمائهم أو قادتهم!. ثم بدا لي أنه أصدر إليهم أمراً وقفز إلى البحر وتبعه ذلك الصف الطويل واحداً وراء الآخر بإنتظام قلما يتوفر ربما عند جنود دول العالم الثالث!

غاب فريق الغطس أو (الضفادع البطريقية!) قرابة نصف ساعة، إنهم هناك في البحر يتقافزون.. طائر آخر لعله ضمن الفريق إلا أنه وصل متأخراً عنهم، لقد غابوا عن ناظريه.. أخذ يصيح لعله يناديهم ثم أخذ يتنصت كأنه يترقب صوتاً منهم رداً على ندائه!... لا فائدة لقد سبقه فريق الغطس وهم الآن مشغولون بصيد صغار السمك والحبار (الخثاق) والكريل، ولا وقت لديهم للرد على هذا الكسول الذي جاء متأخرا! تجمع حوله عدد آخر ويمم الجميع وجوههم(ومناقيرهم) شطر البحر يترقبون عودة الفريق.. لا أعرف هل المترقبون لعودة الفريق على الشاطئ من الإناث غاب عنهن أزواجهن؟!، ذلك لأنني لا أستطيع تمييز

الأنثى من الذكر منهم، وكيف لي بذلك وأنا الذي بالكاد استطعت تمييز تلك (الأنثى) في غرفة السفينة بعد نقاش طويل!

لا يساعدني قفاز اليد الجلدي الذي ارتديته في تصوير مشاهد "المسرحية" التي أراها أمامي بدقة، فأخلعه حتى أستطيع التحكم بالمُصورِّة (كاميرا الفيديو) خاصة وأن فرائصي ترتعد من شدة البرد. إلا أن الحالة ازدادت سوءا بتجمد يداي وتحول لونهما إلى اللون الأزرق الداكن بفعل البرد الشديد وأي برد؟! إن برودة الثلاجة أقل وطأً وأخف ضرراً!.

أصبحت كالصحفي المحترف، أحمل معي ثلاثة " كاميرات " ، واحدة منهن للفيديو ومسجل حتى أستطيع تسجيل ملاحظات العلماء والباحثين، ودفتر صغير أدونِّ فيه ملاحظاتي وأنطباعاتي التي أستمد منها مادة هذا الكتاب الذي بين يديكم .. قطعاً لا يمكن أن تكون هذه إجازة سنوية يقضيها موظف بعيداً عن زحمة العمل في الراحة والاسترخاء إنها مهمة أخرى لعمل أشق وأقسى. رفاق الرحلة لا يصدقون أنني في إجازة، يقولون إن العمل الذي تقوم به الآن هو مهمة أنت مكلف بها!.

لم أعد أحس بكفي من شدة البرد لبست القفاز مرة أخرى، وليكن من أمر الصور ما يكون، بل إن الوضع إزداد سوءاً بتجمد قدمي رغم الجوارب الصوفية والقطنية ها قد عاد فريق الغطس، خرجوا من الماء صفاً واحداً وراء قائدهم، أخذوا ينفضون الماء عن ريشهم المبلل.. سبحان الله الذي وهب القدرة لهذه الكائنات الضعيفة على تحمل البرد الشديد.. ها أنا رغم الملابس الثقيلة التي أتدثر بها أرتعد من البرد، بل إنني شعرت فعلاً بقشعريرة تسري في أوصالي عندما شاهدت البطاريق وهي تغطس في الماء، ثم عندما عادت وأخذت تنفض الماء عن ريشها.. كأنني أنا الذي غطست في تلك الثلاجة الطبيعية شديدة البرودة ! .

البطريق أديلي..

البطريق طائر بطيء المشيء على الأرض، ذلك لأنه لا يوجد له أعداء على البر إلا أنه من أسرع الكائنات حركة في البحر. يغوص إلى أعماق كبيرة وبسرعة فائقة قد تصل إلى ٣٢ كم في الساعة، وله قدرة كبيرة أيضاً على المناورة قد لا تتوفر للكائنات البحرية. ذلك لأنه عندما يرتاد البحر، فإنه يواجه أعداء في غاية الخطورة قد تلتهمه في قضمة واحدة! منها أسماك القرش والحيتان القاتلة وعجول البحر من فصيلة النمر. مع أنه يصادق أنواعاً أخرى من عجول البحر ويعيش معها خلاف عدوه النمر.

... وعموماً قد يصل عمر البطريق إلى ٣٥ عاماً!. ومازلت أتساءل: هل المناطق الباردة تطيل عمر الكائنات أكثر من المناطق الحارة؟!.

النوع المنتشر في هذه الجزيرة هو بطريق "أديلي"، وهو أحد الأنواع السبعة التي تعيش في القارة، يبلغ متوسط وزنه حوالي ٥ كغ، وطوله ٧٠ سم. يعيش ويتكاثر في سواحل القارة والجزر التابعة لها.. يعتبره العلماء "مُهَّرج" القارة! لأنه أكثر الأنواع حباً للهو والمزاح والمرح!.. يستطيع أن يغوص في الماء حتى ١٢ قدم، ويقفز إلى سطح الجليد على ارتفاع خمسة أقدام بواسطة قدميه. وكما هو بارع في الغطس، بارع كذلك في التزحلق على الجليد.. إما تسلية أو مسابقة مع آخرين! ويستطيع التحكم بسرعته واتجاهه بواسطة جناحيه وهو منزلق على بطنه.

في شهر أكتوبر يبدأ "أديلي" أو عدّولي كما أطلقت عليه أنا على سبيل التدليل والمداعبة نظراً لشقاوته، يبدأ هجرة نحو الجنوب طولها حوالي ٨٠ كم وهي مسافة جداً طويلة لطائر يمشي على قدميه بسرعة بطيئة، حيث موسم التكاثر. يبدأ الذكر أولاً، ثم عندما يصل إلى المكان المقصود، يحجز مكانا للعش، تصل بعده بعدة أيام الأنثى حيث تبدأ

الملاطفة والتودد والغزل ثم يقوم الذكر بجمع حجارة العش حيث يضعها تحت قدمي أنثاه بعد أن ينحني أمامها عدة مرات!. وهو بهذا العمل يتودد ويتقرب إليها لأن موسم التكاثر قد دنى واقترب..

ويُذكِّرني هذا العمل بأغنية من الخليج العربي يقول مطربها "حصيّة على حصية ونبني البيت يا بنية!" وحصيّة هنا تصير حصاه.. هناك علاقة مدهشة بين عش البطريق أديلي وبيت المطرب الذي ينوي بناءه بواسطة جمع الأحجار!!، إلا أن أديلي قطعاً أكثر رومانسية من مطربنا هذا لأنه يضع أحجاره تحت قدمي أنثاه وينحني أمامها عدة مرات تودداً وملاطفة واحتراماً!!.

يستغرق العمل في بناء العش الحجري عدة أيام، ثم تضع الأنثى بعد (الزواج والسكن في العش!) بيضتين في شهر نوفمبر.. وبعد أن تضع الأنثى بيضتيها الاثنتين تغـادر إلى البحر حيث تلتقط الكريل وتزدرده في بطنها.. ويكون الذكر في تلك الفترة التي تستغرق من ٧ – ١٠ أيام راقداً على البيضتين!

بعد عودة الأنثى، يغادر الذكر لتناول طعامه من البحر تماماً كما فعلت الأنثى ثم يعود.. وهكذا حيث تستمر فترة الحضانة حوالي ٣٥ يوم، قد بعد أن تقفس البيضتان يتناول الأبوان رعاية الصغيرين لفترة تتراوح ما بين أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع، بحيث يبقى أحدهما عند الصغار ويذهب الآخر إلى البحر لتناول الكريل وعندما يعود يفرغ ما في جوفه من غذاء شبه مهضوم في جوف صغيره.. ولقد شاهدت هذه العملية أي عملية تغذية الصغير وقمت بتصويرها.

ثم في شهر فبراير عندما ينبت الريش على الصغير "ويقابله البلوغ عند الإنسان" يغادر إلى البحر وحيداً كي يتعلم العوم والإعتماد على النفس.. ثم يغادر الأبوان بعد ذلك بشهر تقريباً. ويبقى الصغار مدة سنتين في البحر أو على الجليد الطافي.

من الإحصائيات الطريفة التي قرأتها عن بطريق أديلي هي أن خمسة ملايين منها تعيش في جزيرة أوركنيز الجنوبية. *"South Orkneys"* وتقع شمال شرق أنتاركتيكا ويحتاج هذا العدد الهائل من بطاريق أديلي إل ٩ آلاف طن من الكريل وسمك لارفال في اليوم الواحد لتغذية صغارها في موسم التكاثر!! وهذا يعني سعة حوالي سبعين سفينة صيد!! إنها كمية هائلة حقاً تلك التي يلتهمها البطريق المشاغب.

ومن غرائب البطريق التي تم رصدها عن قرب بواسطة العلماء، استخدامه حركة الشمس في السماء للإستدلال على عشه أثناء رحلته الطويلة للبحث عن الطعام!، ولقد افترض العلماء وجود "ساعة حيوية أو بيولوجية" لديه تُعينه على استخدام حركة الشمس في السماء في "الملاحة" ومعرفة الاتجاهات والمواضع

كما قدَّر العُلماء أيضاً ارتفاع العش عن سطح البحر بحوالي ٣١٥ متر!، وهو الذي تتسلقه البطاريق خاصة الصغار منها. وهذا الارتفاع يعادل عمارة من مائة طابق تقريباً!!.

أنواع أخرى من البطريق..

نـوع آخـر يسمى "أبـو ذقـن *"Chinstrap"*، سُميَّ بهذا الاسم لوجود خط أسود يطوق رقبته، فكأنه مطوق بطوق، لذا سمي المطوق بذقن. يبلغ معدل وزنه حوالي ٤,٥ كغ، ومعدل طوله حوالي ٦٨ سم. يعيش في الغالب في الجزر القريبة من أنتاركتيكا شمالاً وشبه جزيرة أنتاركتيكا. ويُقدّر عدد هذا النوع بحوالي عشرة ملايين. وهو ذو طبيعة عدوانية، كما أنه دائم الصراخ بصورة مزعجة. يتسلل إلى أعشاش أديلي للاستيلاء عليها. تضع أنثاه بيضتين، حيث تتناوب حضانتهما مع الذكر تماما كما يفعل أديلي.

بطريق جنتو *"Gentoo"* من نفس الفصيلة السابقة، وهو على نوعين: جنتو الجنوبي ويبلغ متوسط وزنه حوالي ٥,٥ كغ، وطوله حوالي ٧١ سم. وجنتو الشمالي ويبلغ متوسط وزنه حوالي ٦,٢ كغ وطوله حوالي ٨١ سم. ويُقدَّر عدد هذا النوع بحوالي ٣٥٠ ألف طائر تضع أنثاه بيضتين بحجم كرة التنس، ويتناوب الذكر والأنثى على احتضانهما لمدة ٣٥ يوم تقريباً حيث تقفس البيضة، ثم يتناوب الذكر والأنثى على إطعام الصغار وحمايتها من طائر الكركر البني ألد أعداء صغار البطريق. ويُعتبر بطريق جنتو من أسرع أنواع البطاريق في الغطس والسباحة وبامكانه أن يغطس حتى عمق مائة متر تحت الماء!.

بطريق المكرونة *"Macaroni"* سُميَّ بهذا الاسم لوجود عُرف فوق رأسه يشبه عيدان المكرونة الطويلة وهي صفراء اللون أيضا. يبلغ معدل وزنه حوالي ٤,٢ كغ وطوله حوالي ٧٠ سم. يعيش في الجزر القريبة من أنتاركتيكا خاصة جورجيا الجنوبية. يعد بالملايين، يقضي فصل الشتاء في البحر، ثم يعود إلى مناطق تكاثره حيث يقوم بإعداد العش الصخري. تضع الأنثى بيضتين، الأولى أصغر من الثانية بمقدار النصف تقريباً. ونادراً ما تفرخ البيضة الأولى. بعد حوالي ٣٧ يوم يفقس البيض حيث يقوم الذكر باحتضان الصغير وحمايته من

الكركـر وغيره لمدة ثلاثـة أسـابيع، بينمـا تقـوم الأم في تلـك الفـترة بجمـع الكريـل في معـدتها لتغذي به صغيرها بعد ذلك. ثم يغادر الصغير العش في شهر مارس.

بطريـق روك هـوبر *"Rockhopper"*، يبلـغ معـدل وزنـه حـوالي ٢.٥ كـغ وطولـه ٥٥ سـم وبذا يعتبر أصغر أنواع بطاريق أنتاركتيكا. يعيش بصحبه بطريق المكرونة ولذا فهـو يشبهه في صـفاته، بـل حتـى في العُـرف الـذي يعلـوا رأسـه. تضـع الأنثـى بيضـتين كسـائر أنـواع البطـاريق الأخـرى، ولكـن بأحجـام مختلفـة، وعـادة مـا تفقـس بيضـة واحـدة مـن الإثنـتين وعنـدما يبلـغ الفـرخ سـبعين يومـاً مـن عمـره، يغـادر العـش ليبـدأ مسيرة حياتـه كسـائر طيـور البطريـق الصـغيرة. وهـذا النـوع مـن البطـاريق هـو أكثرهـا عدوانيـة، ولا يعـرف المداعبـة كمـا يفعل معنا بطريق أديلي الذي نحن في ضيافته الآن.

البطريـق الملك *"King"*، وهـو مـن فصيلة أخـرى بخـلاف مـا سـبق ذكـره، يبلـغ متوسـط وزن البطريق الملك حوالي ١٥ كغ، وهو بذا من الأحجام الكبيرة، ومعدل طوله ٩٥ سم.يعيش على أرض القـارة نفسـها والجـزر التـابعة لهـا. كمـا أنـه يتـخذ منـاطق واسـعة لتكـاثره، تكـون عادة قريبة من الشواطئ، وهي غالباً ما تكون مشغولة إما بالآباء أو الأبناء على مدار العام بعكس أعشاش البطاريق الأخرى. ويُقدَّر عددها بحوالي مليوني ملك!. يضـع البطريـق الملك بيضـة واحـدة، يحتضـنها فـوق قدمـه ويغطيهـا بثنيـة مـن ريشـه أو جلـده بحيـث يبعـث فيهـا الدفـء مـن حـرارة جسـمه. وتضـع الأنثـى بيضـتها في شـهر نـوفمبر ويتنـاوب علـى حضـانتها الأبوان لمدة ١٥ يوم حتى تقفس في منتصف شهر يناير تقريباً. ثم كما هو متبع عند سائر البطـاريق، يغـادر أحـد الأبـوان للحصـول علـى الغـذاء مـن البحـر، وبعـد مئـات مـن عمليـات الغوص والغطس تحت الماء، قد تصل إلى عمق ٢٥٠ متر تقريباً، يعود ليغذي صغيره. وبحلول شهر إبريل يكون الفرخ قد إكتمل نموه تقريباً. وفي ديسمبر يكون قد نبت له الريش وأخذ يرتاد البحر للحصول على الغذاء كالكبار.

في حضرة الإمبراطور البطريق!!

بطريـق الإمبراطـور *"Emperor"*، أكبر أنـواع طيـور البطريـق على الإطلاق. يبلـغ وزنـه وهو في كامل نموه حوالي ٣٠ كغ، وطوله ١,١٥ متر تقريباً. يشكل مـع البطريـق الملك فصيلة واحدة من فصائل البطريق. ويتميـز هذان النوعـان بالرزانـة والوقـار بعكس بـاقي البطـاريق الأخـرى المشـاغبة كمـا رأينـا مـن سـلوكها. وهـذان النوعـان مـن بطـاريق أنتاركتيكـا، كـل المعلومات التي توفرت عنها تم جمعها خلال الثلاثين سنة الماضية، رغم أن أول تقرير كُتـب عنها، كان أثناء بعثة سكوت الأولى في أكتوبر سنة ١٩٠٢. وآخر مربى أُكتشف لهـا كـان في سنة ١٩٨٦م.

يبدأ موسم التكـاثر عند الإمبراطور عندما ينهتي الآخرون (الرعيـة!) في شـهري أبريـل ومـايو، أي عند بداية فصل الشتاء الجنوبي، عندما تبدأ كُتل الجليد الضخمة في التكون والتماسـك، بحيـث تسـتطيع حمـل تلـك الأوزان الثقيلـة. ولقـد رصـد أحـد علمـاء البعثـة الفرنسية بداية تجمع بطاريق الإمبراطور بعد موسم الإخصاب وكتـب قـائلا: "تهـب الريح شـديدة لا تعـرف الهـوادة، لسـرعة تـتراوح مـا بـين ١٠٠ و ١٥٠ في السـاعة، ويحـد الإعصـار المصاحب لهـا من الرؤيـة فلا تتجـاوز متراً واحداً، مـع مـا يـذروه من شظايا الجليد الصغيرة ويجد المُرء صعوبة في التنفس، ويعجز عن القيام بجهد ما، يغشى عينيـه سـتار من الجليد في لحظة.. في هذه الظروف القاسية، تقفس بيضة الإمبراطور". كما سجل عالم آخر في مذكراته قـائلاً: "لم نكن نعلم أننا نصبنا مخيمنا بـالقرب من مرعى بطريـق الإمبراطور، عندما وصل اثنان منهما لحق بهما الثالث الذي حياهم بأن أحنى رأسه على صدره، ورد الآخران على تحيتـه بأحسن منهـا. ثـم بعد أسبوعين تجمـع حـوالي ١١٠٠ إمبراطور، حيـث كانـت تصل بمعـدل ٤٠٠ إمبراطـور في اليـوم، نـازحـة مـن الشـمال والشـمال الغربـي مجتـازة الجليـد في

صفوف طويلة كصفوف الجند!. وهنا يبدأ التعارف بين الذكر والأنثى استعداداً للزواج وإنجاب الأطفال، وهي ليست مهمة هينة كما قد يتبادر إلى الذهن، ذلك أنه يقف الواحد ذكرا كان أو أنثى شارعا منقاره أو منقارها نحو السماء مصغيا السمع لعل صوتاً يأتي من بعيد. ثم بعد مدة يقوم البطريق بدلك جناحيه بمنقاره وهو داساً رأسه في صدره، ثم يأخذ نفساً طويلاً، ويبدأ في الترنم بأنشودة حبه. وهي أنشودة موزونة (مقفاه!) ومعقدة تنتهي بنغمة طويلة. وما أن تنتهي هذه الأنشودة حتى يمد عنقه مرة أخرى شاخصاً بمنقاره نحو السماء وتتكرر الأناشيد، وتختلف أنشودة الأنثى عن أنشودة الذكر اختلافاً بيناً. وما ان يتآلف اثنان من بين المئات من الذكور والإناث، بعد كل هذه الشعائر وترانيم الغزل، حتى يعيدا تكرار هذه الأناشيد، ولكن بين الاثنين هذه المرة. وعندما يتم الإتفاق والتوافق بينهما تبدأ مراسم الخطوبة والزواج".

وعلق عالم آخر على هذه الشعائر قائلاً: "عندما نتخيل أن هذه الشعيرة تؤديها المئات بل الآلاف من البطاريق.. تتكون لدينا فكرة عن الباليه الغريب والفريد الذي كان يقع دائما في تلك الفترة!".

تضع أنثى الإمبراطور بيضة واحدة فيما بين ٥ و ٢٠ مايو، في أحلك ساعات الليل، ليل القارة القطبية الشديد البرودة، ما أن تضعها حتى يتلقفها الذكر فوق قدميه ثم يدسها بين ثنايا الشحم الثقيلة أسفل بطنه حيث الدفء. ويبلغ وزن البيضة حوالي ٤٠٠ غرام، وطولها ١٣ سم. في هذه الأثناء تغادر الأنثى إلى البحر، ولا تعود قبل شهر يوليو في عز الشتاء.وعملية تسليم البيضة للذكر تصاحبها طقوس إمبراطورية!، تحمل الكثير من مشاعر الود والحنان بين الأنثى والذكر، ربما تفوق تلك التي بين الرجل والمرأة من بني البشر!، كما تتردد فيها الكثير من الأناشيد والأغاني وفروض الإحترام.

تصل فترة التفريخ إلى ٦٥ يوماً، في هذه الأثناء يعتني الذكر بالبيضة عناقة فائقة وسط البرودة الشديدة، حيث يتجمع الذكور جميعاً في تكتل واحد متراصين ومتلاصقين طلباً للدفء. وقد تصل درجة الحرارة إلى ٢٠ درجة مئوية تحت الصفر وسط رياح عاتية تبلغ سرعتها حوالي ٢٠٠ كم في الساعة. يفقد خلال هذه الفترة الذكر حوالي ٤٠٪ من وزنه. إذ أنه ما يتراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة شهور لم يصب الذكر خلالها طعاماً!.

ينسى الإمبراطور جوعه وهو يسمع صراخ وليده في بيضته، وبعد يومين من الصراخ يخرج الفرخ من البيضة وتحدث الضوضاء ويرتفع الصراخ بين أطفال الأباطرة، ويدب الفرح بين الجميع، حيث يحتضن كل والد ولده فرِح بهن أما أولئك الأباطرة الذين لم ينجبوا، فإنهم يدوسون على كرامتهم، ويتخلون عن وقارهم ويطاردون أفراخ غيرهم ليخطفوها ويخفوها تحت بطونهم!!

تعود الأمهات في الفترة التي يفقس فيها البيض، سبحان من ألهمهاالتوقيت وطريق العودة، أما البحث عن أزواجها وأطفالها فهي مشكلة المشاكل هنا، حيث يختلط الحابل بالنابل، ويستغرق البحث يوماً كاملاً وسط الظلام الدامس، بحيث تقف الأنثى وسط مجموعة من الذكور وتغني فترد عليها الذكور بأغان تميزّ فيها الأنثى أغنية زوجها، فإذا عرفتها انطلقت إليه، وإذا لم تجده تذهب إلى مجموعة أخرى حيث تـُعيد مراسم النشيد الإمبراطوري!

وصف أحد العلماء هذه المشاهد قائلاً: "يسود الهرج والمرج في المربي في هذه الأوقات وتكاد أصوات الغناء وترديد الأغاني تصم الآذان".

في هذه الأثناء يتم الإستلام والتسليم، ويغادر الذكر في رحلة تستغرق أياماً عدة لتناول الغذاء من صيد البحر.

من ثلاثة إلى خمسة أسابيع يبدأ الصغير في النمو تدريجياً من خلال الطعام الذي تلقمه إياه أمه، ثم تبدأ بعد ذلك المسئولية المشتركة في تغذية الوليد ورعايته بين الذكر والأنثى، إلا أن نسبة الوفاة بين الصغار تكون عالية، وقد تصل إلى ٦٠٪ من المجموع العام.

ما بين ديسمبر ويناير من السنة التالية، يبدأ الصغير في طرح الزغب من على جسمه الذي يكتسي بالريش بعد ذلك، ولكن يبقى الصغير في نصف وزن والديه تقريباً.

تـذكرت قصـة تبـادل المـرأة والرجـل في السـويد مسـئولية حضـانة الصـغير الـتي أقرهـا القـانون عنـدهم، ولقـد أوردت هـذه القصـة في كتـابي "إلى سـقف العـالم".. ولكـن هـل تعلـم السويديون هذا المسلك من البطريق؟!

تلك كانت قصة الإمبراطور البطريق ورعيته في تلك المملكة القصية من العالم، مملكة شاسعة يحكمها ملوك وأباطرة، وتعيش فيها الملايين من الرعية.. ولكنها جميعاً طيور لا تطير!.. فلا عجب إذن أن يُطلق الكثير من المستكشفين على قارة أنتاركتيكا اسم "مملكة البطريـق".قـال تعـالى:﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]

صدق الله العظيم

إنتهت زيارتنا إلى إحدى ممالك البطريق، ويتكون وجهتنا التالية إلى حيث يعيش ويقيم بشر مثلنا، ولكنهم دخلاء على مملكة البطريق.. زيارتنا القادمة ستكون إلى القاعدة الأرجنتينية في القارة نفسها، فنحن رغم هذه الجولات لم نلمس أرض القارة بعد، وكل جولاتنا تلك كانت لجزر تابعة لها.

وإلى أن نصل إلى القاعدة الأرجنتينية، سوف أحدثكم عن الإستكشافات الأولى للقارة.. فإن فيها قصص جديرة بأن تروى!

١- سورة الأنعام الآية :٣٨